دور الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي بالأندلس

إبراهيم القادري

المغرب

يجمـــع الدارســـون علي أن الحروب الصليبية لم تقتصر علي المشرق العربي فحســـب، بـــل امـــتدت لتشـــمل الغـــرب الإسلامي وخاصة بلاد الأندلس، فإذا كانت التحرشـــات الصليبية قد بلغت أوجها في المشرق العربي بعد احتلال بيت المقدس سنة ٤٩٢هـــ (١٠٩٩م)[1]، فإنها لم تكن تقل خطورة عنها في تلك المنطقة النائية من العالم الإســـلامي، وقد ترجم موقف البابوية ذلك عملياً قبل تاريخ هذا الاحتلال بسنوات حينما انـــبرت بكـــل ثقلها وسلطانها الديني لتحفيز النصارى الأسبان الذين تطوعوا للمشاركة فـــي الحـــروب الصليبية بالمشرق علي تغيير وجهتهم نحو الجبهة الأسبانية، ولضمان نجـــاح هـــذا التوجه، شرع البابا في منح صكوك الغفران لكل من هب من المسيحيين لقتال المسلمين بالأندلس، وجند الرأي العام المسيحي الأسباني لقبول هذه السياسة[2].

مـــن البديهـــي أن تخلـــق هذه الدعوة الصليبية المتعصبة ردود فعل قوية لدي الرأي العام الإسلامي بالأندلس، لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن تبرز قوات اجتماعية مخـــتلفة لوقف هذا التحدي الصليبي ومن بينها العلماء الأندلسيون الذين اتخذوا مواقف متبايـــنة، ولكنها تصب كلها في مقاومة الزحف الصليبي بالغرب الإسلامي، والأندلس علي الخصوص.

وقـــبل اســـتعراض مخـــتلف هـــذه المواقف، تستلزم المنهجية السليمة عرض أوضاع الأندلس خلال هذه الحقبة للكشف عن الحالة المتردية التي تمخض عنها تذؤب الخطـــر الصليبي وما نجم عن ذلك من ردود فعل العلماء الأندلسيين، فما هي الوضعية التي أفرزت هذا التحدي الصليبي ببلاد الأندلس؟

---

[1] ابـــن تغـــري بردي: النجوم الزاهرة، نشر المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، ج٥، ص١٤١ ؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر طبعة مصر، ط١، الطبعة الحسلية، ص٢١١.

[2] شارل اندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، الترجمة العربية. طبعة ليبيا- تونس، ١٩٧٨، ج٢، ص١١١.

سياسياً، لم تكن الأنـــدلس خلال النصف الأول من القرن الخـــامس الهجري (١١م) فـــي وضعية تحسد عليها، فالخلافة الأموية في القرن الرابع جسدت آخر تجربة وحدويـــة، وكان سقوطها إنذارا بظهور عصر الطوائف أو ما تسميه بعض المصادر[٣]، ب (أيـــام الفـــرق) التي أصبحت فيها الأندلس نهباً لكل مغامر أنس من نفسه القوة، ولا غـــرو فقـــد تقاسمتها شرذمة من المتربصين بالسلطان، ممن آثروا الاستبداد بنواحيهم، فأسسوا كيانات مهترئة وصل عددها إلي ثلاثة وعشرين دويلة[٤].

ولدينا شهادة معاصرة تؤكد حالة التمزق الذي بلغ أوجه في هذه المرحلة، أنها شـــهادة الفقيه ابن عبد البر[٥] الذي عايش أحداث هذه الحقبة فكتب بهذا الخصوص قائلاً: (وانقطـــع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب علي موضع ملكـــه واستبعد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان يأخذون منهم اليوم).

ويورد الأمام عبد الله بن بلكين[٦] أخر أمراء غر ناطة، في مذكراته التي تعتبر وثيقة هامة بحكم معاصرته للأحداث، نصاً يشير إلي هذا الانقسام وما تمخض عنه من أزمـــة سياسية وانهيار كامل للسلطة المركزية بقوله: (وبقي الناس لا أمام لهم، فتنافسوا علـــي الدنـــيا، وطمـــع كـــل واحد في الآخر، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين، فكيف ســـلاطين كثـــيرة وأهـــواء مختلفة)، ولعل اتخاذ ألقاب خلافية متعددة من طرف أمراء الأندلس المتشرذمين يعكس عمق هذه الأزمة[٧].

---

[3] ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار عبادي. طبعة مدريد، ١٩٧١، ص٧٨.

[4] عـــن أمـــراء الطوائف والأسرات التي حكمت مختلف الإمارات الأندلسية، انظر: زامباور: معظم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جامعة فؤاد الأولي سنة ١٩٥١، ج١ ص٨٦ وما بعدها.

[5] القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـــ ص٣٥.

[6] كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص١٨.

[7] المراكشـــي: المعجب، طبعة البيضاء، ١٩٧٨، تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي، (الطبعة٨) ص١٠٥ وقد أورد شعر أبي الحسن بن رشيق مستهزئا بهذه الألقاب الخلافية:

مما يزهدني في أرض أندلس — سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

زد علـــي ذلك أن الدويلات الطائفية لم تكن تتوفر علي أبسط مقومات الدولة، إذ اتســمت بأسســها الهشة، وافتقرت إلي قاعدة تضمن لها كياناً سياسياً صلباً له وجود اجتماعي مستقل.

كمـــا أن صـــغر مساحتها وقلة عدد سكانها، وطبيعة حكومتها التي تفتقد إلي الشـــرعية، وعـــدم توفرها علي قوة عسكرية للدفاع عن حدودها[8]، كل ذلك جعل منها كـــيانات رخـــوة شـــبيهة بالدولـــة الإقطاعية[9]، لذلك ظلت عاجزة عن إنجاز أي دور وحـــدوي، كمـــا اتســـمت بالضـــعف والوهن حتى (ذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية[10]).

وممـــا زاد وضـــعية هذه الدويلات تأزماً، إغراق نفسها في صراعات دموية زادت من هشاشتها، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين[11] تعبيراً رائعاً بقوله: (وجعل الله بيـــن أولـــئك الأمـــراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات).

اســـتمرت هـــذه الحالة المؤسفة ما يربو عن الثمانين سنة، كلها تفكك خطير، وانحـــلال سياســـي واجتماعـــي عميق، وظل التناحر لغة التخاطب السائدة بين ملوك الطوائـــف الذيـــن تناســـوا مســـؤولياتهم القومية، بل فضل معظمهم الاستعانة بالممالك النصـــرانية حفاظـــاً علـــي عروشهم الواهية، لذلك لم يتورعوا عن سفك الدماء ومقاتلة إخوانهـــم العرب، يقول ابن الكر دبوس[12] في هذا الصدد: (وكان أسر شيء عند ألفنش (ألفونســـو السادس) Alfonso XI فتنة تقع بين الولاة من المسلمين (إشارة إلي أمراء

---

[8] بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، طبعة قطر، ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٠٤.

[9] عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتي الفتح المرابطي، طبعة القاهرة، ١٩٦٩، ص٤١٨.

[10] ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

[11] ابن الخطيب: أعمال الأعلام – القسم الخاص بالأندلس – تحقيق بروفنسال، طبعة بيروت، ١٩٥٦، ص٢٤٤ ولمزيد من التفاصيل حول صراعات أمراء الطوائف أنظر: عنان:م.س. ص٣٥ وما بعدها.

[12] تاريخ الأندلس: ص٨٢.

الطوائـــف) فيعيـــن هـــذا علي هذا، وهذا علي هذا فيتجلبب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعجزوا فيظفر بملك الجزيرة كلها).

لـــم يكن هذا الواقع السياسي المهتريء سوي انعكاس أمين للوضع الاقتصادي المـــتدهور الـــذي أفرزته اعتداءات ألفونسو السادس الذي شكل قوة ضغط علي ملوك الطوائـــف، حـــتى جعلهـــم (فـــي المعصـــرة) علي حد تعبير دوزي Dozy[١٣] وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سن ضرائب سنوية تدعي (بارياس) Parias [١٤] ازدادت مقاديرها بشكل مروع إلي درجة أن بعضهم عجز عن أدائها[١٥]، فكانت جولاته العســـكرية تعـــود كل مرة محملة بالضرائب[١٦]، وظل الأمر علي هذا النحو حتى قدوم المرابطين[١٧].

خلفـــت هـــذه السياسة الجبائية نتائج متناقضة علي المستوي الاقتصادي، ففي الوقـــت الـــذي امـــتلأت خزائن ألفونسو السادس بموارد إضافية (حوالي ٤٠ كلغ من الذهب كل سنة) تفاقمت الوضعية الاقتصادية بالأندلس، وازدادت تدهوراً وانهيار[١٨].

وســـاهمت الحـــروب بين زعماء الإمارات الطائفية في أنهاك الزراعة ونهب المحاصـــيل، وفـــي هـــذا الصدد يقول ابن بسام[١٩]: (فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعـــية مهملـــة، لأن جملـــة غلاتهم وجميع اعتمالاتهم تتلف بأيدي تلك الطواغيت)، وبالمـــثل فـــإن عملـــيات الســـلب والنهـــب التي قامت بها القوي النصرانية بين الفينة والأخرى، أسفرت عن خسائر فادحة[٢٠]، يضاف إلي ذلك كثرة المغارم التي ثبطت همة

---

[13] DOZY: *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de L' Andalousie par les Almoravides*, Leyde, 1932, Tome 3, p.11

[14] FOSSIER: *Enfance d'Europe: aspects économiques et sociaux*, Paris, 1982,Tome 1, p. 254.

[15] ابن بلكين م.س.ص ٧٦.

[16] ابن خلدون: كتاب العبر، تحقيق خليل شحاتة، طبعة بيروت، ١٩٨١،ج٦،ص٢٤٨.

[17] القلقشندي م.س. ج٥، ص ٢٤٩ ابن الكردبوس: م.س.ص ٧٧.

[18] FOSSIER: op.cit, p. 127.

[19] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، طبعة ليبيا – تونس، ١٩٨١ ق ٢مج١، ص٢٥٤.

[20] FOSSIER: op. cit. , p. 254.

المزارعيـــن (فضـــعف الاعتمار وخلت الديار[٢١])، وفي ذلك إشارة واضحة إلي انهيار قـــوة الإنـــتاج الرئيسية في الأندلس وهي الزراعة، مما يعني تصدع البنية الاقتصادية برمتها.

ومـمـــا زاد الطين بلة أن أهل الذمة، وخاصة اليهود استبدوا بالسلطة والنفوذ، وهيمـــنوا علـــي المناصب العليا في الآمرات الطائفية، مما آثار حفيظة الرعية وجعل السخط يتأجج في صدورها ضد حكامها وسياساتهم المتخاذلة[٢٢].

حـــدث هـــذا فـــي الوقـــت الذي تعاظم شأن النصارى، وجنحت ممالكهم نحو الـــتوحد، مدعمين من قبل الكنيسة البابوية والرهبان الكولونية، لذلك وجهوا كل طاقاتهم نحـــو دويـــلات الطوائف، ولبلوغ هذه الغاية نهجوا خطة تعتمد علي حرب الاستنزاف وتشـــتيت الصفوف، وهو ما عبر عنه الفونسو السادس بقوله: (ولكن الرأي كل الرأي تهديـــد بعضـــهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدا حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضـــعفت)[٢٣]، وقـــد تمخـــض عن هذه الخطة سقوط مدينة طليطلة[٢٤]، الذي جاء ضربة قاصـــمة للدويـــلات الطائفـــية، ودليلاً واضحاً علي عجزها عن وقف الزحف الصليبي المتفاقم.

من البديهي أن تساعد هذه الأوضاع المتردية علي احتداد شوكة الصليبيين، إذ أصـــبح الفونســـو الســـادس إذا استعرنا تعبير أحد الباحثين[٢٥]، (من أكبر الوجوه) التي ستضـــاعف الـــزحف الصـــليبي، ولعل تلقيب نفسه بذي الملتين[٢٦]، يزكي هذا المعني، وتـــنهض تحدياتـــه العسكرية حجة علي عزمه استرجاع الأندلس برمتها، وحسبنا أنه دوخ الإمـــارات الطائفـــية التي شقتها جيوشه من الشمال إلي الجنوب حتي وصلت إلي

---

[21] ابن الخطيب، م.س.ص ٢٤٤.

[22] ابن الكردبوس: م.س.ص: ٧٨ – ابن بسام، م.س.ق١ ،مج٢، ص٧٦٦.

[23] ابن بلكين، م.س.ص ٧٣.

[24] ابن بسام، م.س.ق٤، مج،١ ص ١٦٣.

[25] CALMETTE: *Histoire d'Espagne* .,Paris, 1947, p. 80.

[26] DOZY: op. cit , p. 121.

فرضـــة المجـــاز من جزيرة طريف تحت سمع أمراء الطوائف وبصرهم[٢٧]، بل هؤلاء فضلوا ملاطفته بالأموال والهدايا، والانغماس في ملذاتهم (بشرب الخمور واقتناء القيان وركـــوب المعاصـــي وسماع العيدان)[٢٨] دون أي محاولة لإقامة جبهة متحدة لمواجهة الخطـــر المشترك[٢٩]، وتشهد الرسالة التي بعثها الفونسو السادس إلي يوسف بن تاشفين أمـــير دولـــة المرابطيـــن بالمغرب الأقصى قبيل موقعة الزلاقة SACRAJAS (سنة ٤٧٩هـــ) علي هذه الوضعية المتخاذلة[٣٠].

وتبلور التحدي الصليبي في المواقف التي تبنتها البابوية في هذا الصراع، ففي ســـنة ٤٧٦هـــ (١٠٦٣م)، قـــرر البابا الاسكندر الثاني Alexander II منح صك الغفران لكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في الأندلس،[٣١] وفي نفس المنحي اتفق مع ملك قشتالة فرناندو الأول Fernand I أن يصدر بركته البابوية لكل من يستجيب لهذه الرغـــبة الصـــليبية، فهب كثير من فرسان غرب أوربا للمشاركة فيها طمعاً في النهب والحصول علي المغانم.

ولمـــا عقد البابا أو ربان الثاني مؤتمر (كليرمون) Clermont لإذكاء حماس الأمـــم النصرانية من أجل خوض غمار الحروب الصليبية، أراد (برنا رد) Bernard ومعـــه عدد من الأساقفة الأسبان التوجه إلي المشرق لإفراغ طاقتهم القتالية، لكن البابا حـــرم علـــيهم ذلك، ووجههم للقيام بهذه المهمة في الأندلس التي كانت لا تقل في نظره أهمية عن أراضي المشرق[٣٢]، وبذلك أصبحت (خط الصدام الأول)[٣٣] في هذه الحروب التي أصبحت تشرف عليها روما وتوجهها كما توجه حروبها في الأراضي المقدسة[٣٤].

---

[27] ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط، ١٩٧٣، ص١٤٣.

[28] ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

[29] عبر الأمير عبد الله بن بلكين عن ذلك في مذكراته بقوله: (فنحن لم يعن بعضنا بعضاً علي الرومي) انظر: التبيان، ص١٦٦.

[30] انظـــر نص الرسالة عند الحلبى: كتاب حسن التوسل فى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان، طبعة بغداد، ١٩٨٠، ص ٧٦.

[31] شارل الدري جوليان:م.س.، ج٢، ص١١١.

[32] أشباخ: تاريخ الاندلس علي عهد المرابطين والموحدين، الترجمة العربية. طبعة تونس – ليبيا، ١٩٧٨، ص ١٢٤.

وتجلت الروح الصليبية كذلك في دساتير بعض الدول المسيحية، ولا غرو فقد تضـــمنت القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال قانوناً ينص علي أن الذيـــن يموتون في سبيل النصرانية يصبحون أعضاء في طبقة النبلاء، وأن صفة النبل ترفع عن كل شخص يفر إلي أراضي المسلمين[٣٥].

في هذا المناخ، ازداد تحدي الممالك النصرانية، فأبن الخطيب[٣٦]، يذكر أنه بعد احـــتلال الفونسو السادس مدينة طليطلة، عرض عليه أنصاره أن يلبس التاج، فأرجأهم إلي أن يستولي علي قرطبة، بل (طمع في الاستيلاء علي الجزيرة كلها[٣٧]).

إلـــي جانب شبح ألفونسو السادس، ظهرت شخصية عسكرية أخري زادت من متاعب مسلمي الأندلس، ألا وهي شخصية السيد الكنبيطور Campiodor الذي تحول من لص محترف[٣٨]، إلي قائد نجح في قيادة جماعة من الفرسان المسيحيين المغامرين، وأذاق الأندلســـيين الهـــزائم المـــرة، حتى أن ابن بسام[٣٩] وصفه بأنه كان (عقالا وداء عضالا له في الجزيرة وقائع)، وقد راودته أحلام استرجاع الأندلس برمتها[٤٠].

نســـتخلص ممـــا تقدم، أن الأندلس عرفت خلال القرن الخامس الهجري تحدياً صـــليبياً لا يقل خطورة عما شهده المشرق الإسلامي، فما هو موقف العلماء الأندلسيين من هذا التحدي؟

---

[33] ســـعدون نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين، طبعة بيروت، ١٩٨٥، ص١٠٣.

[34] DESCOLA: *Histoire de l' Espagnè chretienne*, ed. Robert Leffont., p. 107.

[35] أشباخ:م.س.ص ٢٤٩.

[36] أعمال الأعلام – القسم الأندلسي، ص٢٤٤.

[37] مؤلف مجهول: الخلل الموحشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة البيضاء، ١٩٧٩، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، ص٣٨.

[38] عبد الجليل الرضا الراشد: علاقات دول الطوائف في الأندلس بالمرابطين (أطروحة جامعية مرقونة) نوقشت بجامعة عين شمس بالقاهرة،ص٧٧.

[39] الذخيرة، ق٣، مج ١، ص٩٥.

[40] نفسه، ص ٩٩، ويقول في هذه الرواية: (حدثني من سمعه يقول وقد قوي طمعه ولج به جشعه: علي رذيق فتحت هذه الجزيرة ورذريق يستنقذها).

بــرزت مواقف هذه القوة الاجتماعية بوضوح تجاه التحديات الصليبية، وأن لم تكــن منسجمة بكيفية تامة، فقد استغلوا فرصة إلقاء دروسهم ومحاضراتهم للحظ علي الجهــاد، وأذكــاء الحمية الدينية والأنفة الإسلامية، كما تجلت مواقفهم أيضاً من خلال الســفارات والوســاطات بيــن أمــراء الطوائــف، ودعوتهم للتوحد والتصدي للخطر الصــليبي، أو من خلال مساهمتهم في إسقاط الحكام المتخاذلين أو المشاركة الفعلية في معارك الجهاد والاستشهاد فيها.

وعلي العموم يمكن رصد مواقف العلماء من خلال الأدوار التي اضطلعوا بها لمجابهة التحديات الصليبية علي الشكل التالي:

١- الوعظ والدعوة لتوحيد الجبهة الإسلامية من أجل الجهاد.

لا جــدال فــي أن النزاعات التي شجرت بين أمراء الطوائف، وما تلاها من مواقــف متخاذلة، كان لها وقع سيئ علي نفسية بعض العلماء الذين بادروا غلي الدعوة لنــبذ الخلافــات بغية تشكيل جبهة إسلامية متراصة قادرة دابر الصليبيين، والتصدي لمشاريعهم التوسعية.

وقــد بــدأت هذه الدعوة التوحيدية منذ سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هــ، وتزعمها العلامــة الفقــيه أبــو الوليد الباجي (٤٠٣ – ٤٧٤ هــ) الذي جال بلاد الأندلس طولاً وعرضاً، داعياً إلي وحدة الصفوف، ومحذراً من عواقب الفرقة والنزاع[41].

وتتضارب المصادر حول ما إذا كان هذا العالم قد قام بمبادرته من تلقاء نفسه أم أن حــاكم بطليوس المتوكل بن الأفطس قد ندبه إلي ذلك. فأبن الآبار[42] يؤكد الرواية الأخيرة بقوله: (ولما عظم عيث الطاغية أدفونش بن فردنلند، وتطاول إلي الثغور، ولم يقــنع بضــرائب المال، انتدب للتطوف علي أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي يــندبهم إلي لم الشعث ومدافعة العدو، وكلهم يصغي إلي وعظه). بينما ذهب مؤرخون

---

[41] السامراتي: الدعوة لتوحيد الأندلس في أيام الطوائف، مجلة زانكو السليمانية، ليسان، ١٩٧٧، ص٨٢ – ٨٣.

[42] الحلة السيراء: تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص٩٨.

أتخـــرون[٤٣] إلي تبني الرواية الأولي، فأكدوا أن الباجي قام بدعوته التوحيدية الوعظية مـــن تلقاء نفسه، ونحن نرجح الرواية الأولي لاجماع المؤرخين عليها وتفرد ابن الآبار وحـــده بذكـــر الثانية، كما أن الرواية الأولي أقرب إلي سياق المنطق التاريخي، إذ لا يعقـــل أن يســـعي أمير تمت أدانته من قبل كافة المصادر لمساهمته في انقسام الأندلس إلي المطالبة بتوحيدها!.

ومـــا يســـترعي الانتباه، أن دعوة الفقيه الباجي بدأت مباشرة بعد عودته من المشـــرق العربي، مما يعكس وحدة الظاهرة في التاريخ العربي، والظروف المشتركة التي استلزمت التصدي للخطر الصليبي في المشرق والمغرب علي السواء.

ورغـــم أن جهـــوده لم تسفر عن نتيجة عملية، فقد نجح علي الأقل في وضع أمـــراء الطوائـــف أمـــام الأمر الواقع، وأشعرهم بمسؤولياتهم وضرورة نبذ خلافاتهم، وتوحـــيد كلمتهم لمجابهة الخطر النصراني، يقول المقري[٤٤] بهذا الخصوص: (ولما قدم مـــن المشـــرق إلي الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً، وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشـــي بيـــنهم فـــي الصلح وهم يجلونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبدون نزعته، ولم يفد شيئاً فالله تعالي يجازيه عن نيته).

إلـــي جانب أبي الوليد الباجي، برز دور العلامة المحدث أبي حفص عمر بن الحســـن الهوزنـــي الـــذي جســـد بحق نموذج الشجاعة والجرأة والروح النقدية الحرة المســـتقلة التـــي أبـــان عـــنها بعض العلماء الأندلسيين تجاه حالة التمزق التي عرفتها الأندلـــس فـــي عصـــر الطوائف وما نجم عن ذلك من خطر صليبي، حتى أن موقفه الصلب كان وراء اغتياله[٤٥].

---

[43] أنظـــر النباهي: قضاة الأندلس (المراقبة العليا). طبعة بيروت ١٩٨٠. ص ٩٥ – ابن الشباط: صلبة السمط (المنشـــور مـــع تـــاريخ ابن الكردبوس) ص٤٦ – ابن بشكوال، الصلة، ق،١ ص:٢٠٠ – ابن خلكان: وفيات الأعيان: تحقيق حسان عباس، بيروت (د.ت)، ج٢، ص٤٠٨.

[44] نفح الطيب: ج٢، ص٧٧.

[45] بن عبود: م.س.ص١٧٥.

ولا يســـاورنا شـــك فـــي أن رحلـــته إلي المشرق العربي جعلته علي مفاسد المجتمع الإسلامي، وعلي الأزمات التي كانت تعصف به، والتمزق الذي صار ينخره، فعاد يحمل في نفسه هم الدعوة للوحدة ورصد صفوف الأمة العربية – الإسلامية.

وبمجـــرد عودتـــه، التقـــي بالعلامة أبي الوليد الباجي[٤٦]، وهو لقاء لم تكشف المصـــادر عما دار فيه من حوار بين الفقيهين، بيد أن تأزم الأوضاع بالأندلس واحتدد شـــوكة المسيحيين يجعلنا نفترض أن بعض مواضيع الحوار دارت حول مسؤوليتيهما فـــي القـــيام بدور الوعظ ونصح أمراء الطوائف بتوحيد شبه الجزيرة الأندلسية، وهزم التطلعات الصليبية.

ويخـــيل إليـــنا أن سقوط مدينة بيشتر كانت الحدث الأكثر تأثيراً في نفسه، فقد تـــألم للمذابح والمآسي التي أصابت مسلمي الأندلس، فبعث إلي المعتضد رسالة تفيض بالغيرة والحماس يحضه فيها علي جهاد الكفرة وتحرير المدينة المحتلة[٤٧].

والملاحظ أنه دعم رسالته باستشهادات قرآنية لإضفاء المشروعية الدينية علي جـــرآته وصـــراحته، لكن ذلك لم يحل دون دفع الثمن غالياً، فقد امتعض المعتضد لما جـــاء فـــي الرسالة فقتله بيده[٤٨]، وهو مثال صارخ للتضحيات التي قدمها بعض العلماء خدمة للقضايا القومية ومجابهة التحدي الصليبي.

ومـــن العلمـــاء الذيـــن قـــاموا بـــنفس الدور كذلك عن طريق الدعوة للوحدة واســـتنهاض الهمم الفقيه ابن عبد البر، نجل الفقيه الكبير أبي عمر يوسف بن عبد البر الـــنمري (ت٤٦٣هـــ)، ورغم أسلوب التقية الذي نهجه، ومساندته لجرائم المعتضد[٤٩]، فـــأن بعـــض كتاباته جاءت زاخرة بالدعوة إلي الوحدة ورصد صفوف عرب الأندلس أمام الزحف الصليبي[٥٠]، ولا غرو فقد جاء في إحدى رسائله: (ورد كتابك يحض علي

---

[46] عياض: ترتيب المدارك ج٣، ص٨٢٥.

[47] انظر نص الرسالة في الذخيرة، ق٢، ج١، ص٨٤ – ٨٥.

[48] نفسه: ص٨٣.

[49] بن عبود: م.س.ص١٧٩.

[50] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، طبعة بيروت، ١٩٦٢، ص١٧٧.

مـــا أمر الله تعالي من الألفة واتفاق الكلمة وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة في هذه الجزيرة)[٥١].

وتقـــوم رســـالة ثانية كتبها علي لسان أهل ببشتر قرينة أخري علي دوره في الدعـــوة لوحدة الأندلس لمجابهة الخطر النصراني إذ جاء فيها: (ولو كان شملنا منتظماً وشـــعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتبكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً لما طاش لـــنا سهم ولا سقط لنا نجم... فتنبهوا وقاتلوهم في أطرافكم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغوركم قبل أن يجاهدوكم في دوركم[٥٢]).

كل هذه القرائن تكشف بالملموس المحاولات الجادة التي قام بها بعض العلماء الأندلســـيين لتوحـــيد الجـــبهة الاسلامية في الأندلس وصد الأخطار الصليبية، فما هي الاختيارات الأخرى التي نهجها العلماء الآخرون؟

٢- فضح أمراء الطوائف ومعارضتهم لتقاعسهم عن رد الأطماع الصليبية:

لعـــل أهم عالم عكس هذا التوجه، الفقية أبو محمد علي ابن حزم أحد فطاحلة علمـــاء القـــرن الخـــامس الهجري، فعلي خلاف بعض العلماء الذين تبنوا مبدأ الواقعية وعـــدم الجرأة للتعبير عن معارضتهم للنظام الطائفي علي الأقل حتي ظهور يوسف بن تاشـــفين، كـــان ابـــن حـــزم أكثر إفصاحا في معارضته المطلقة واللامشروطة لدول الطوائـــف. بـــل طعـــن في شرعية النظام الطائفي معتبراً كل أمير (محارب لله تعالي وساع في الأرض بفساد[٥٣]) كما أدان عصر الطوائف ونعته بعصر الفتنة والغلب[٥٤]، بل عد جميع الأموال المتداولة في هذا العصر غير شرعية كذلك[٥٥].

---

[51] ابن بسام: م.س. نقلا عن السامرائي: م.س. ص٨٧.

[52] إحسان عباس: م.س.ص١٨١.

[53] ابن حزم: رسالة التلخيص، نشرت مع رسائل أخري ضمن كتاب: الرد علي ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت (د.ت)، ص:١٧.

[54] جمهرة أنساب العرب، طبعة القاهرة (د.ت)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص١٠٢.

[55] ابن حزم: رسالة التلخيص، ص١٧٥ وفيها يقول: (وبرهان ذلك أنني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهما حلالا ولا ديناراً طيباً).

وبمـــا أن اليهود كانوا قد استولوا علي المناصب العليا في الدويلات الطائفية، وصاروا أصحاب الأمر والنهي، فقد صب عليهم جام غضبه وهاجمهم بعنف، وحسبنا أنه أفرد كتاباً لمجادلة اليهودي ابن النغريلة[٥٦].

٣- إقناع ملوك الطوائف بالاستنجاد بالمرابطين لرد الخطر الصليبي:

كانـــت معارضـــة بعض العلماء لأمراء الطوائف ونظامهم القطري المهتريْ العاجـــز عن ردع الأطماع الصليبية معارضة خجولة اكتفت بالتلميح واللف والدوران أحـــياناً وبالصمت أحياناً أخري، وذلك بسبب انقسامهم علي أنفسهم، وعدم امتلاكهم قوة عســـكرية لتغيير الأوضاع[٥٧]، غير أن عاملين ساهما في بروز معارضتهم بشكل قوي وصـــريح. يتمثل الأول في عجز أمراء الطوائف علي تشكيل جبهة موحدة قادرة علي ردع الخطر الصليبي، بينما يتجلي العامل الثاني في ظهور الأمير المرابطي يوسف بن تاشـــفين علـــي الساحة السياسية، فضلاً عن المساندة الشعبية التي أصبح يتمتع بها هذا الأمير.

انطلاقـــاً مـــن هذه الظرفية الجديدة، بدأ العلماء يبذلون قصاري جهدهم لاقناع حكـــام الأندلس بضرورة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لمواجهة سياسة ألفونسو السادس التوســـعية، خصوصاً بعد أن صار هذا الأخير يلوح باحتلال الأندلس كلها، فأكدوا لهم أن الأمير المرابطي أصبح يشكل الاختيار لإنقاذ الأندلس، وأن أي فشل في البحث عن مساندته سيؤدي حتماً إلي محو الوجود العربي بهذا البلد الإسلامي[٥٨].

فـــي هـــذا المنحـــي، أورد صاحب التكملة في ترجمة أبي عبيد الله محمد بن حســـين بـــن محمد بن عريب الأنصاري (ت بعد عام ٥٠٨ هـــ) أنه (سكن سرقسطة، وتجـــول وتجـــول كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة .... وكان وجيهاً عند الملوك متردداً

---

[56] نشر هذا الكتاب تحت عنوان (الرد علي ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخري)، انظر هامش ٥٢.

[57] ابن عبود: م.س.ص ١٨٦.

[58] نفسه، ص١٨٨.

علـيهم[٥٩]) وهـو نـص يكشف النقاب عن محاولاته الرامية إلي إقناع أمراء الأندلس بالدخول تحت طاعة المرابطين لمواجهة الأطماع الصليبية.

وبعـد دخول يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس، أصبح دور العلماء في إقناع أمـراء الطوائف بالتخلي عن إماراتهم لصالح الأمير المرابطي أكثر أهمية، خاصة أن القـوي الصليبية كانت لا تزال تتربص الدوائر بالمسلمين في الأندلس، لذلك بدأ العلماء يقومـون بدور الوساطة بين يوسف وأمراء الطوائف، وفي هذا الصدد تخبرنا المصادر أن الأمـير عـبد الله حاكم غرناطة بعث العالمين إن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه نجاحـه فـي حكم تلك الإمارة[٦٠]، وهي محاولة نميل إلي الظن أنها سعت للتقرب من الأمـير المغربـي للاستنجاد به في اللحظة الضرورية بعد أن بدأ يشعر بالخطر يحدق بـه، لومـا سـمع أنه وصل إلي سبتة في طريقه إلي قرطبة، بعث القاضي ابن سهل المذكور بمعية باديس بن واروي لاستقباله والترحيب به[٦١].

غـير أن دور الوسـاطة الـذي قام به العلماء لتحقيق وحدة الدولة الإسلامية بـالأندلس لـم يجـد الأذان الصـاغية، مما جعل هؤلاء يصعدون الموقف، ويتخذون إجـراءات نجاعة وحزماً، وذلك بإصدار فتاوي فقهية تسمح ليوسف بن تاشفين بإسقاط الحكـام المتخاذليـن، وغـزو الأندلـس وتوحيدها كخطوة ضرورية وحاسمة لمجابهة التحديات النصرانية، وهو ما سنتناوله الآن.

٤- العمل علي إسقاط أمراء الطوائف العاجزين عن ردع الخطر الصليبي:

تـبلور هـذا الدور في اتجاهين: أولهما العمل في الخفاء لمساعدة يوسف بن تاشـفين بغية الإطاحة بأمراء الطوائف، وثانيهما إصدار فتاوي فقهية بكيفية علنية تجيز غزوهم وإسقاط حكمهم تحت غطاء شرعي.

بخصـوص الجانب الأول، تذكر إحدى الروايات أن العلامة القاضي بن سهل بعـث رسـولاً مـن طرف حاكم غرناطة إلي يوسف بن تاشفين، فأستغل هذه الفرصة

---

[59] ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة. نشره الفرد بل وابن أبي شنب. طبعة الجزائر، ج١، ص٤١١.

[60] ابن بلكين: م.س.ص١١٦.

[61] نفسه، ص١٤٦.

لأخـبار الأمـير المرابطي بالوهن الذي أصاب إمارة غرناطة، وانقسام جيشها وانهيار معـنوياته، وفـي نفـس الوقت أبلغه ترحيب سكانها به لتخليصهم من جبروت حاكمه واسـتعدادهم للانضـواء تحت راية المرابطين[٦٢]، كما أن الفقية أبو جعفر ابن القليعي عـبر إلـي المغرب ليحرض يوسف علي الإيقاع بملوك الطوائف، بيد أن أكثر العلماء سـعياً للإطاحـة بهذا الأمير، كان هو الفقية أبو بكر بن مسكن الذي يحدثنا عنه الأمير عـبد الله حاكم غرناطة في مذكراته فيذكر أنه اتصل بيوسف بن تاشفين وأغراه بغزو إمارته[٦٣].

وفـي نفـس السـياق، لم يتوان عالم أخر هو الفقية ابن إحسان عن العمل في خفاء للأطاحة بأمير بطليوس ابن الأفطس الذي كان قد ولاه شؤون دولته.

وبالمـثل، لعب بعض العلماء دوراً هاماً في إسقاط المعتمد بن عباد، فبعد تردد يوسـف بـن تاشفين عن خلعه بسبب العهد الذي كان قد قطعه عليه، ألح عليه الفقهاء بإزاحـته عن الحكم هو وغيره من ملوك الطوائف، إذ ورد علي لسانهم: (فبادر بخلعهم ونحـن بيـن يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فأنك أن تركتهم وأنـت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين إلي الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالي).

أمـا الجانـب الثانـي الخاص بإصدار فتاوي لتنحية أمراء الطوائف، فالفقيه العلامـة أبو بكر الطرطوشي يقدم نموذجاً رائعاً لهذا الإفتاء، وبما أن أمر الأندلس كان قضـية لا تخص مسلمي الأندلس فحسب بقدر ما كانت تهم المسلمين كافة، فإن فتاوي أخـري صـدرت مـن علماء مسلمين من المشرق كذلك، وفي طليعتهم الإمام الغزالي الـذي أفتـي بـأن (إعفـاء أمراء الطوائف والإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلي واجب الجهاد).

---

[62] نفس المصدر والصفحة.

[63] إبراهيم خليل السامراتي: علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، طبعة بغداد، ١٩٨٥، ص١٥٧.

ونظـــراً لمـــا تكتســـبه الفتاوي من خطورة لكونها تعطي المبرر الشرعي لكل مـــبادرة سياســـية، فـــإن أقدام العلماء علي إصدار مثل هذه الفتاوي لتمرير مخططات الأمـــير المرابطـــي تعكس مساهمتهم في إسقاط أمراء الطوائف، ودق أخر مسمار في نعوشـــهم، وتمهـــيد الســـبيل ليوسف ابن تاشفين لاجتياح الإمارات الطائفية المترهلة، وضـــمها نهائياً كخطوة أولي لاستئصال شأفة الخطر النصراني دون إراقة دماء كثيرة، كمـــا يـــرجع إلـــيهم الفضل في إضفاء الصبغة الشرعية الدينية علي دخول المرابطين الأندلس وتوحيدها لمواجهة جحافل الجيوش الصليبية، بعد أن برروا ذلك بتعامل أمراء الطوائـــف مـــع النصـــاري، واثقال كاهل الرعية بالضرائب وتقديمها بسخاء لألفونسو السادس.

٥- مشاركة العلماء في الجهاد والاستشهاد لرد الأطماع الصليبية.

فضـــلاً عـــن الأدوار الســـابقة الذكر، اختار بعض العلماء طريق الاستشهاد والمـــوت فـــي ساحة المعارك لقطع دابر القوي الصليبية، وحسبنا أن بعضهم شـــارك مشـــاركة فعالة في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـــ م ١٠٨٦م، فرزقوا الشـــهادة مـــثل الفقية يعلي المصمودي الذي يذكر عنه ابن عبد الله الملك، أنه دخل الأندلس غازياً صحبة قاضي الجماعة أبو مروان المصمودي (فأكرمهما الله بشـــهادة فـــي وقعـــة الـــزلاقة علي النصاري). ومنهم من ساهم في هذه المعـــركة وخرج ظافراً مزهواً بالنصر كما هو حال ابن القصيرة الذي تجشم عـــناء الصمود في الصفوف الأمامية للجيش، ولم يصب إلا بجراحات خفيفة، وانفرد بذكر مشاهداته لأطوار هذه الحرب في رواية تعد من الروايات النادرة والطـــريفة التي وصلت إلينا علي لسان شاهد عيان، ومن العلماء الذين كانت تحدوهـــم الرغـــبة في خوض غمار هذه المعركة ولو أن الظروف لم تسعفهم لتحقـــيق ذلك، نذكر علي ابن عبد الله بن حمود المكناسي، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن حداد.

نفـــس الشـــيء يقـــال عن علماء آخرين شاركوا في معارك صليبية أخـــري مـــثل معـــركة ألبورت سنة ٥٠٨هـــ واستشهدوا فيها، ونذكر في هذا

الصـــدد يحـــي بـــن محمد الأموي، وأحمد بن ثابت بن عبد الله العوفي، بينما تحـــتفظ المصـــادر بأسماء العديد من العلماء الذين استشهدوا في معركة قتندة ســـنة ٥١٤هـــ لمنع زحف القوي الصليبية، وفي طليعتهم أبو علي بن الحسن الصـــدفي السرقسطي الذي كان يشار إليه بالبنان لسمو منزلته في العلم، وعلو كعبه في المسائل الدينية، وكذلك عبد الرحمن بن فتح اللخمي، ومحمد بن يحي بـــن عـــبد الله بـــن زكـــريا، وبالمثل لم يتقاعس علماء آخرون عن الذب عن هويـــتهم الإسلامية حينما كانت حركة الاسترداد في أوجها إبان مرحلة ضعف المرابطيـــن، وفـــي هـــذا الصـــدد يخبرنا الذهبي أن الفقية العلامة الرشاطي (استشهد عند دخول العدو ألمرية) وذلك في جمادي الأخرة من سنة ٥٤٢هـــ. كمـــا يورد ابن الآبار في ترجمة الفقية جعفر بن محمد بن يوسف أنه استشهد بشنتمرية سنة ٥٤٦هـــ دفاعاً عن العروبة والإسلام ضد القوي الصليبية، وأذا كانـــت الاستشهادات الأخيرة تتعلق بالقرن السادس الهجري، فأنها تمثل رافداً واستمراراً لروح الجهاد لدي علماء القرن الخامس.

وثمة سيل من أسماء العلماء الذين حملوا رسالة الجهاد لكسر شوكة القـــوي الصليبية والتصدي لها بجرأة وحزم، وقد اقتصرنا علي النماذج الأنفة كأدلـــة علـــي الـــدور الطلائعـــي الذي اضطلعوا به للدفاع عن دولة الإسلام بالأندلس.

خلاصـــة القـــول أن العلمـــاء الأندلسيين لعبوا خلال القرن الخامس الهجـــري أدواراً متـــنوعة في التصدي للأطماع الصليبية التي حاقت بالأندلس انطلاقاً من الوعظ والحظ علي تحقيق الوحدة الإسلامية، مروراً بترشيد أمراء الطوائـــف ومعارضـــة سياســـتهم ســـراً أو علـــناً إلـــي المشاركة في الجهاد والاستشهاد، وقد أسفر هذا الدور عن قطع دابر القوي الصليبية ورفع التحدي عـــن المنطقة بمساعدة المرابطين، كما أسهم في رفع معنويات المسلمين قاطبة بعـــد معركة الزلاقة التي كانت أول نصر كسر شوكة الصليبين ومهد للمعارك المظفرة ضد الصليبيين في المشرق العربي خلال المراحل اللاحقة.